البعد الفني والجمالي في كتابة القصص الشعري الطفولي

– قراءة في أعمال كامل الكيلاني –

The artistic and aesthetic dimension in writing childish poetic stories
- a reading in the works of Kamel Al-Kilani -

د.خرواع توفيق

قسم الفنون،جامعة سيدي بلعباس، الجزائر،Kheroua1981@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2021/07/16 تاريخ القبول: 2021/07/22 تاريخ النشر: 2021/09/07

ملخص: نحاول من خلال هذا المقال التطرق لأحد أهم التجارب الموجودة في الوطن العربي على مستوى فن الكتابة الأدبية للأطفال، ونحن نقصد بذلك الأديب المصري كامل الكيلاني الذي اشتغل في جل كتاباته الأدبية على قصص الأطفال، وقد حاول من خلالها التطرق إلى الجانب الأدبي ثم الجانب النفسي للطفل، مع مراعاته الكبيرة للمراحل العمرية لهم، وتصنيف الأعمال الأدبية حسب هذه المراحل.

الكلمات المفتاحية: أدب الأطفال – كامل الكيلاني – القصص الطفولية– الكتابة الأدبية– القصائد الشعرية.

Abstract:
Through this article, we try to address one of the most important experiences in the Arab world at the level of the art of literary writing for children, and by this we mean the Egyptian writer Kamel Al-Kilani, who worked in most of his literary writings on children's stories, and through it he tried to address the literary aspect and then the psychological aspect of the child, Taking into account the great stages of their age, and the classification of literary works according to these stages

Keywords: Children's literature - Kamel Al Kilani - children's stories - literary writing - poetic poems.

1. مقدمة:

يعتبر أدب الأطفال من العلوم حديثة النشأة المنبثقة عن ميدان الأدب الواسع، ورغم أنه يتحد مع هذا الأخير في الكثير من المظاهر الفنية التي تمس الشكل والمضمون، إلا أنه اختص منذ نشأته بمجموعة من الخصائص التي تميزه عن الأدب بصفة عامة، وأدب الكبار بصفة خاصة، وهي تصب جملة وتفصيلا في عرض الحياة من خلال تصوير وتعبير متميزين.

وإذا حاولنا معرفة تاريخ ظهور أدب الأطفال بالضبط، وإذا ربطناه بعالم الطفولة والأمومة فسنقول أنه قديم قدم التاريخ البشري، وإذا ربطناه بالحيز الفني الذي يلتزم بالضوابط الفنية والنفسية والاجتماعية والتربوية التي تساهم في تربية وتعليم الطفل، فسنقول حينها أنه حديث النشأة، مثله مثل الفنون الأدبية الأخرى.

إن اشتغالنا على أدب الأطفال كلون أدبي مليء بالمصطلحات والدلالات اللفظية والفنية التي تصور لنا أفكارا وإحساسات ونزوات تجسد لنا مدارك الأطفال المختلفة، كما أنه أصبح يمثل حلقة هامة ورئيسية في صناعة شخصيات الأطفال من خلال إسهاماته المختلفة في نموهم العقلي والنفسي والاجتماعي والعاطفي واللغوي، إضافة إلى تطوير مداركهم وبعث حياتهم بالثقافة التي نسميها ثقافة الطفل، وتوسيع نظرتهم إلى الحياة وإرهاف إحساساتهم وإطلاق خيالاتهم المنشئة، وهو ليس أداة لفائدة الطفل بقدر ما هو أداة للنهوض به وبالمجتمع كله، وذلك في إطار إنسان عصري جديد يقوم على أسمى درجات البناء النفسي والاجتماعي والعاطفي والعقلي.

من أجل كل هذا سنحاول في هذا المقال المختصر الذي هو في الأصل ورقة بحثية لأشغال الملتقى الدولي الافتراضي حول المناهج والأسس الفنية للكتابة المسرحية للطفل – قراءة في مسارات وتجارب– والذي جرت أشغاله بمقر مخبر النص المسرحي الجزائري بجامعة جيلالي ليابس، بتاريخ الثالث والرابع من شهر أبريل سنة ألفين وواحد وعشرين. قلنا سنحاول تسليط الضوء على أحد أهم رواد أدب الأطفال في العالم العربي، بل في العالم كله، ونحن نقصد هنا كامل الكيلاني أديب وشاعر مصري، كتب العديد من القصص والأشعار الخاصة بفئة الأطفال حاول من خلالها الجمع بين الأصالة والمعاصرة في كتاباته، وكذا محاكاة واقع الأطفال بمختلف همومهم وتطلعاتهم.

1– تعريف أدب الأطفال في سطور:

إن مصطلح أدب الطفل كتخصص وكفن أدبي هو حديث النشأة، بدأ تقريبا مع نهاية الحرب العالمية الثانية، أين أصبح الطفل شريحة أساسية في بناء المجتمع الإنساني المعاصر، فانصب اهتمام الغربيين عليه من خلال صدور إعلان حقوق الطفل عن الجمعية العامة للأمم المتحدة التي حرصت على حماية الطفل ضد كل أشكال التعسف والقهر والظلم. حينها أصبح هناك جنس أدبي جديد يتعلق بفئة محددة وهي فئة الأطفال بمختلف ميولهم ولغاتهم واحتياجاتهم، يوفر لهم كل معاني التسلية والنماء الفكري والحسي.

إذا كانت الدراسات الاجتماعية الحديثة تجعل من الطفل وسيلة أساسية لبناء الحضارة الإنسانية، من خلال الاهتمام به والتوفير له كافة الإمكانيات من أجل الرقي بفكره وأخلاقه، فإن هناك من ينفي إمكانية وجود مثل هذه الدراسات المتعلقة بالأطفال، «

فالكتابة حسب قولهم تعني الاضطرار إلى النزول إلى مستوى عدم النضج البشري بصورة غير طبيعية، وإلى مراعاة أصول التربية الحديثة مما قد يؤثر على الإبداع الأدبي الذي

يتطلب حرية أكثر في الشكل والمضمون، وعلاوة على ذلك فإن الصبية ليسوا في درجة تؤهلهم لفهم وتذوق عمل فني، ومن ثمّ فمن العسير أن يوجد أدب الطفل في وقت لا يوجد فيه الجمهور القادر على الإفادة من هذا النوع من الأدب»[1]. غير أن الكتابات الموجهة للأطفال يمكنها أن تصل إلى مستوى النضج الأدبي، إذا استطاع الأديب أن يوظف أسلوبا رصينا يرقى به إلى المستوى التعليمي والتثقيفي على حد سواء، يمزج فيه بين طابع الجدّ وطابع الفكاهة والهزل. وبالتالي يصبح أدب الطفل هنا أداة تربوية تثقيفية تمس الجانب الأخلاقي والفكري والاجتماعي والنفسي للطفل.

للغوص أكثر في هذا الموضوع، لا بد لنا أن نعرج على أهم التعاريف التي حاولت شرح هذا الجنس الأدبي المتعلق بهذه الفئة العمرية، والتي سنوردها فيما يلي:

– يعرفه ربحي مصطفى عليان بأنه « فرع جديد من فروع الأدب الرفيعة يمتلك خصائص تميزه عن أدب الكبار رغم أن كلا منهما يمثل آثارا فنية يتحدى فيها الشكل والمضمون، وهو في مجموعه الآثار الفنية التي تصور أفكارا وإحساسات ومتخيلات تتفق مع مدارك الأطفال، وتتخذ أشكال القصة، الشعر، المقالة والأغنية ».[2]

– أما الحديدي فيعرف أدب الأطفال من مدلوله اللغوي، ثم من مدلوله الفني، بحيث يقول : « إنه شكل من أشكال التعبير الأدبي، له قواعده ومناهجه، سواء منها ما يتصل بلغته وتوافقها مع قاموس الطفل، ومع الحصيلة الأسلوبية للسن التي يؤلف لها، أو ما يتصل بمضمونه ومناسبته لكل مرحلة من مراحل الطفولة، أو ما يتصل بقضايا الذوق وطرائق التكنيك في صوغ القصة، أو فن الحكاية للقصة المسموعة »[3]. وبالتالي فهو يؤسس لمعنى جديد في الأدبيات، وهو الأدب الذي يختص أسلوبه ومعناه ومضمونه بفئة معينة من البشر، وهي التي تتحدد بواسطة السن.

وفي تعريف آخر له يقول : « أدب الأطفال خبرة لغوية في شكل فني، يبدعه الفنان خاصة للأطفال فيما بين الثانية والثانية عشر أو أكثر قليلا، يعيشون ويتفاعلون معه، فيمنحهم المتعة والتسلية، يدخل على قلوبهم البهجة والمرح، وينمي فيهم الإحساس بالجمال وتذوقه، ويقوي تقديرهم للخير ومحبته، ويطلق العنان لخيالاتهم وطاقاتهم الإبداعية ويبني فيهم الإنسان ».[4]

إن الحديدي يرصد لنا من خلال هذا التعريف التقارب الكبير الموجود بين أدب الأطفال والجانب الأدبي، ويجعله جنسا من النصوص الأدبية الخاضعة للشكل والمضمون النصي، غير أنه يتقيد بجملة من القواعد والمناهج أهمها :

- تتوافق لغته إلى حدّ كبير مع ما تقتضيه الحصيلة الأسلوبية للطفل، ومع ما يتصل بمضمونه ومناسبته لكل مرحلة من مراحل الطفولة.
- يميل الكاتب في أعماله إلى الجانب الفني أكثر منه إلى الجانب الأدبي، فيعتمد على الذوق، وتقنيات الإبداع الفني في صياغة القصة، أو الحكاية، أو المسرحية.

ويؤكد نفس الكاتب بأن أدب الطفل في الوطن العربي هو مستحدث في أدب الكبار، فهو نوع أخص من جنس أعم، يتوجه فيه الكاتب إلى مرحلة الطفولة التي يراعي فيها خيالاتهم ومعارفهم واندماجهم مع الحياة، مع تحقيق الأهداف التربوية والأخلاقية والفنية على حد سواء.

وبالتالي، فإن أدب الأطفال لا تنساق الكتابة فيه على كونها تنتمي إلى أحد الطرفين:

أولا: طرف الشعر وكل ما تتضمنه من قصائد للصغار، وأغاني الترقيص، واللعب، والألغاز، والأناشيد، والدراما الشعرية المبسطة.

ثانيا: طرف النثر وتضم الحكايات، والقصص المتنوعة، خاصة تلك التي يستعمل فيها الكاتب ألسنة الحيوانات ، والطيور، والشخصيات الخرافية التي تجلب خيال الطفل.

في سياق آخر، يرى هادي نعمان الهيتي بأن لأدب الأطفال نفس المقومات الخاصة بالأدب، غير أن اختيار الموضوع، وتكوين الشخصيات، وخلق الأجواء، واستخدام الأسلوب والتراكيب والألفاظ اللغوية في أدب الطفل، قد تخضع لجملة من الضوابط المختلفة، تتحكم فيها حاجات الطفل وقدراته، ومستوى نموه بصورة أساسية.[5]

يعرفه كذلك أحمد زلط بأنه « إبداع مؤسس على خلق فني، يعتمد بنيانه اللغوي على ألفاظ سهلة ميسرة فصيحة تتفق والقاموس اللغوي للطفل، بالإضافة إلى خيال شفاف غير مركب، ومضمون هادف متنوع، وتوظيف كل تلك العناصر، بحيث تقف أساليب مخاطبتها وتوجهاتها لخدمة عقلية الطفل وإدراكه »[6]، فيتمكن الطفل من استيعاب الأهداف التعليمية والفنية التي احتواها النص الأدبي، ومن ثم يستطيع بواسطة مخيلته الواسعة أن يكتشف نتائجه وآفاقه.

وحتى نتمكن من ذكر تعريف شامل يجمع بين الجانب الأدبي والأخلاقي والتربوي لمفهوم أدب الطفل، لا بد لنا أن نقف عند أمرين أساسيين هما:

أولا: يمكن لأدب الطفل أن نتعبره مادة ثقافية واسعة، تشمل كل المواضيع والأطروحات التي تتعلق بالإنسان، سواء في مجال الآداب أو الأخلاق أو التربية أو غيرهم. ويمكن أن يشتمل كذلك على ما يعالج قضايا الكبار وانشغالاتهم من نصوص أدبية مقروءة، أو نصوص مسموعة، أو نصوص مرئية. ويشترط في هذا الباب أن يتم سياقة هذه الأعمال

في حيز فني يتماشى مع الكل، وبالتالي يستطيع أن يحقق لنا تكاملا نصيا يخدم ذاكرة الطفل ومخيلته.

ثانيا: يكتسي أدب الأطفال دورا كبيرا في تربية النشء وتأديبهم، ومن خلاله يمكننا أن نجد مخرجا فسيحا للكثير من القضايا الاجتماعية والأخلاقية التي يحتاجها الطفل في سنه المبكر. لذلك لا يمكن لناقد هذا النوع من الأعمال الأدبية أن يكتفي بدراسة النص الأدبي، دون الوقوف على مضمونه التربوي والتهذيبي والتعليمي، وعلى أسلوب التنفيذ والتقديم، والنظرة إليه نظرة واسعة تشمل جميع الآليات والأساليب المستخدمة في هذا النوع من النصوص الأدبية.

من خلال هذه التعاريف التي تم ذكرها سابقا، يتبين لنا بمجرد التمعن فيها، أن أصحابها حاولوا تعريف أدب الأطفال من خلال ثلاثة توجهات هي :[7]

الاتجاه الأول: أدب الأطفال هو امتداد لأدب الكبار.

الاتجاه الثاني: أدب الأطفال هو جنس مختلف عن أدب الكبار.

الاتجاه الثالث: أدب الأطفال هو مزج بين الاثنين معا.

حتى نتمكن من الفهم أكثر، يمكننا أن نضع جملة من الخطوط العريضة حول الاتجاهات الثلاث وهي كالآتي:

الاتجاه الأول: يرى أنصار هذا الاتجاه بأن أدب الأطفال لا يمكنه بأية حال من الأحوال أن يشبه أدب الكبار، لا في لغته، ولا في أسلوبه، ولا في موضوعاته، ولا في طريقة تذوقه الفني، لأن (حسب رأيهم) هناك فروق عديدة يمكن أن نوجزها فيما يلي:

– الاختلاف المتباين في جمهور أدب الأطفال وأدب الكبار، خاصة وأن هذا الأخير يتولد من رحم المأساة والهموم في أغلب الأحيان، في ظل عملية إبداعية لا تخضع لشروط

معينة. أما أدب الأطفال فإن ينساق بشروط معينة، وينطوي على التوجيه والإرشاد، بصورة خيالية تخرج عن الواقع المعتاد. كما أن المبدع لا يعيش تجربة بشرية، بقدر ما ينساق نحو الأهداف التربوية.

– أدب الكبار في معظمه عبارة عن كتابات ورقية مقروءة، أي تقرأ كثيرا ولا تسمع أو ترى إلا في غالب الأحيان. أما أدب الأطفال فهو في غالبه مشاهدة بصرية، تتلقاها أذن صاغية، أو أعين ناظرة، فهو في جميع الأحوال تكون علاقته بالمتلقي أكثر.

– الفروق الواضحة في كلا الجانبين، خاصة من ناحية استعمال الوسائل الجمالية والأدوات التعبيرية، أو من ناحية الموضوعات المختارة، أو من ناحية طبيعة النوع الأدبي، بين أدب خيالي ينمو بداخله حنين التوجهات الإيجابية، وأدب واقعي يعبر عن ذات الإنسان في إثبات وجوده ومصيره.

الاتجاه الثاني: يرى أصحاب هذا الاتجاه بأن أدب الأطفال هو جنس مختلف من حيث الإبداع، «فيرتكزون أساسا على وظيفة هذا الأدب والغاية المتوخاة منه، وعلى أساليب عرضه، فهو عندهم بصورة عامة، أداة للتنشئة والتوجيه وإعلاء البنية الثقافية في نفس الطفل. فتصبح في هذه الحالة مختلف القضايا ذات الصلة بأدب الأطفال والموضوعات المرتبطة بالنتيجة التي يسفر عنها العمل الأدبي في نفس الطفل »،[8] فيخرج عن منحناه المعهود ويصبح فنا إبداعيا تحت غطاء تربوي تثقيفي.

الاتجاه الثالث: أما أصحابه، فيحاولون إيجاد صلة الوصل بين الجنسين، فيربطونه بطبيعته الأدبية ككل موحد (مادة مكتوبة) مهما كان موضوعها، المهم أن تكون القواعد الأساسية في فن الكتابة بصفة عامة تمثل أساس الكتابة للأطفال والكبار، فالكاتب هنا لا تغنيه الموهبة عن الدراسة، ولا تحل معرفته بأصول التربية وعلم النفس محل علمه بالأصول

الفنية لكتابة النصوص الأدبية، فالكل يحتاج إلى فكرة، وإلى رسم شخصيات، وإلى تشويق وحبكة وبناء فني سليم، إضافة إلى الفكرة التي يعالجها، ومستوى الأسلوب.

يمكننا في الأخير أن نستخلص من هذه التعريفات نقاطا مشتركة هي :

– يختص أدب الأطفال بفئة عمرية معينة وهي فئة الأطفال، فيتم توجيه العمل لهم، إما بطريقة مكتوبة، أو منطوقة، أو مسموعة، أو مرئية.

– يتم عند كتابة أدب الأطفال مراعاة كل فئاتهم العمرية المختلفة، وتشترك في ذلك الخصائص اللغوية والعقلية والسيكولوجية.

– أدب الأطفال هو أدب المتعة والخيال، في قالب جمالي وفني وإبداعي.

– هناك أشكال عدة من أدب الأطفال، يمتاز كل شكل منها بخصوصيته اللغوية والفنية، كالقصة والشعر والمسرحية والأسطورة، وهي التي سيتم التفصيل فيها لاحقا.

2– نشأة أدب الطفل في العالم :

ظهرت الكتابة الأدبية الموجهة للأطفال في العالم متأخرة بعض الشيء عن الكتابة في أدب الكبار، بحيث يؤكد أغلب الباحثين والمشتغلين في هذا المجال على أن البوادر الأولى كانت مع بداية القرن السابع عشر، في شكل ومضات أدبية من حين لآخر، خاصة تلك التي كانت تروى على لسان الأشخاص في شكل الحكايات الشعبية والقصص العجيبة والخرافات الطفولية.

من أهم ما نجده من كتب خلال فترة القرن السابع عشر ، ما كتبه "جان لافونتين- Jean de la fontaine" من قصص وخرافات للأطفال في الأدب الفرنسي بين سنتي (1668–1694) من خلال كتاب (حكايات خرافية) الذي ضم العديد من القصص الخيالية

على ألسنة الحيوانات في 320 خرافة موزعة في اثني عشر جزء ، وقد ترجم هذا الكتاب إلى العديد من لغات العالم واعتبر بعد ذلك جزء من الأدب العالمي الموجه للأطفال.

إلى جانب "لافونتين" نجد كذلك الشاعر الفرنسي "شارل بيرو Charles perrault" الذي كانت أغلب كتاباته هو الآخر موجهة للطفل، وقد ضمت العديد من القصص الخرافية التي انجذب حولها أطفال العالم، منها مثلا : سندريلا ، وذات القبة الحمراء، والجميلة النائمة في الغابة، والقط ذي الحذاء الطويل. كما اعتبر كتابه في القصة "حكايات أمي الإوزة" من أشهر ما كتب في أدب الأطفال على مر التاريخ. وفي سنة 1697 أصدر مجموعة قصصية أخرى للأطفال هي (قصص وخرافات من الأزمنة القديمة).

لقد اشتغل الكتاب الأوائل في أدب الطفل أمثال "لافونتين" و"بيرو" على مخيلة الطفل بالدرجة الأولى، متبعين بذلك منهجا جديدا في الأدب العالمي الذي أصبح يمس الجانب النفسي أكثر من الجانب الوجداني لحياة الإنسان ، كما « اعتمدوا كذلك في قصصهم على التراث الغزير الذي وجدوه في القصص الخرافية والخيالية التي امتدت جذورها إلى الشرق لا سيما الهند، وكانت تحمل حكما وعبرا أخلاقية على لسان الحيوانات ».[9]

وحسب مصطفى عليان فإن تاريخ ظهور أول كتاب في أدب الطفل يعود إلى سنة 1484 حين أقدم الكاتب "وليام كاكستون– William Caxton" على كتابة مجموعة من القصص الخيالية التي تضم الأغاني والألعاب والخرافات الدينية القديمة التي جمعها في كتاب خرافات إيسوب* من الفترة اليونانية القديمة.

كما أن هناك من يرجح ظهور أدب الطفل ابتداء من القرن الأول الميلادي في منطقة شرق آسيا، وبالضبط في بلاد الهند ، فقد وصلتنا عنهم في هذه الفترة الحكايات

الهندية المسمات بـ (البانجاتنترا) التي ألفها الحكيم الهندي "برهى" في خمسة أقسام (أسفار)، وهي تضم قصصا وحكايات تعليمية على لسان الحيوانات.

لقد ترجمت هذه القصص إلى عدة لغات منها حكايات (كليلة ودمنة) لعبد الله ابن المقفع خلال العصر العباسي، فقد ترجمها من اللغة البهلوية إلى العربية وجعل من قصصها ما يتناسب مع البيئة الاجتماعية في بغداد، كما استخدمها للتعبير عن آرائه وحكمه السياسية الموجهة إلى الخلفاء والأمراء.[10]

في حين آخر، هناك من يرى بأن البدايات الأولى لأدب الطفل كانت عند قدماء المصريين، خاصة مع ظهور الأسطورة والخرافة التي استعملها الإنسان آنذاك عند كتابة القصة والحكاية. ولعله كان يفسر من خلالها أسرار الحياة وغرائبها، وغوامض عالم الغيبيات، وهو يملأ بذلك الفراغ العقلي الذي خلفه نقص المعرفة المنطقية والأسس العلمية.

لقد لعبت الأسطورة حينها دورا كبيرا في ترجمة حياة الإنسان وإشباع رغباته الفكرية والدينية والاجتماعية، وجعل منها معلما ومنهاجا للعيش في سلامة وأمان، حتى أنه أصبح يرى الظواهر التي تتبني على الأسطورة من المسلمات التي لا ينبغي المساس بها.

ولعلّ اشتغال المصريين القدماء على الأسطورة كجانب من الخيال والوهم، هو ما دفعهم إلى توظيفها في عالم الطفولة، وذلك من أجل إثارة خيالهم من جهة، وتسليتهم بالمغامرات البطولية المثيرة من جهة أخرى.

لقد اكتشف العلم الحديث العديد من كتابات قدماء المصريين التي تناولوا فيها أدب الأطفال، وقد جاءت في غالب الأحيان على شكل حكايات مكتوبة على ورق البردي أطلق عليها اسم (حكايات السحرة) والتي يعود تاريخ كتابتها إلى حوالي ثلاث آلاف سنة قبل الميلاد.

ضمت هذه القصص والحكايات دلالات ومعان كبيرة على النضج العقلي والفني الذي ارتقى إليه الإنسان القديم في بلاد مصر. كما عبرت عن قدرة فائقة في السبك والتأليف، وهو ما إن دلّ على شيء فإنما يدل على ما قدمه العالم القديم من عطاء كبير في مجال الأدب الإنساني عامة، والأدب الطفولي خاصة.

3- تطور أدب الطفل في الوطن العربي:

مما لا شك فيه أن التراث العربي رغم قدمه وزخم إنتاجه وعطائه، إلا أنه يكاد يخلو مما نسميه بأدب الطفل، فلا تجدنا نلمس شيئا مكتوبا في هذا المجال سوى ما كان متداولا بين ألسن الأطفال حول القصص والحكايات الشعبية التي كان يرويها لهم الكبار كقصص ألف ليلة وليلة، وكليلة ودمنة من التراث العربي القديم.

لقد كانت غالبية هذه القصص تحمل طابع الخيال والخرافة، خاصة وأن طابع الإنسان قديما كان يجد متعة في القصص والحكايات المليئة بذكر الجن والعفاريت، وأخبار المغامرات والبحار والقصور، وكل ما كان يجوب به إلى عالم خيالي جميل ينسيه مرارة الواقع ومتاعب العيش. كما نجد في الأساطير والبطولات القديمة العديد من الحكايات والقصص المشوقة التي كان يحكيها الحكواتي والقصاص في المقاهي الشعبية أمثال : بطولات عنترة بن شداد، وأبو زيد الهلالي ، وحي بن يقضان.

مع مجيء الإسلام تغيرت مواضيع أدب الطفل عند العرب، واشتغل أصحاب الكتابة فيه على الواقع عوض الخيال، وخرج مفهومها ومضمونها عن خرافات الجاهلية وأساطيرها وقصصها، وبقي أسلوبها يتميز بالبساطة والسهولة المشوقة.

تضمنت موضوعات أدب الطفل في هذه الفترة القصص القرآنية التي عالجت مبادئ الدين، ومكارم الأخلاق، وحسن التربية، إضافة إلى أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم،

وأعماله، وأخبار الصحابة، وقصص البطولات الإسلامية في الجهاد ونشر الإسلام، وحكايات العلماء والصالحين والرحالة.

كما اقتدى الكتاب في هذه الفترة بخصاله صلى الله عليه وسلم الحميدة تجاه فئة الأطفال، فقد كان معلما ومربيا لهم على الأخلاق الحميدة والسلوك الطيب، وكان يسمع لهم ويداعبهم.

فعن ابن عباس-رضي الله عنه- قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن خُلقا وكان لي أخ ، يُقال له أبو عُمير -وهو فطيم-. كان إذا جاءنا (صلى الله عليه وسلم) قال: يا أبا عُمير ما فعل النُّغير؟ (النُّغير طائر كان يلعب به) . [11]

وفي حديث آخر لجابر -رضي الله عنه- قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعينا إلى الطعام، فإذا الحسين يلعب في الطريق مع صبيان، فأسرع النبي صلى الله عليه وسلم أمام القوم ثم بسط يده فجعل -الغلام- يفر هاهنا وهناك، فيضاحكه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أخذه فجعل إحدى يديه في ذقنه، والأخرى بين رأسه وأذنيه، ثم اعتنقه وقبله، ثم قال: «حسين مني وأنا منه، أحب الله من أحبه، الحسن والحسين سبطان من الأسباط».[12]

على هذا النهج واصل الصحابة الكرام اهتمامهم وحبهم لفئة الأطفال، مقتدين في ذلك بالمعلم الأول صلى الله عليه وسلم، فجعلوا منهم (الأطفال) غايتهم الكبرى لبناء المجتمع الإسلامي الفتي، والنهوض به إلى ركب التقدم والازدهار. ومما ذكره الجاحظ في أخبار الخلفاء الراشدين عن تشجيعهم للكتابة للطفل وتربيتهم على الخلق الحسن، أن عمر بن الخطاب – رضي عنه عنه – قال : علموا أولادكم السباحة والفروسية، وأروهم ما سار من المثل، وحسن من الشعر. [13]

كما نجد في فترة صدر الإسلام الاهتمام الكبير بالأطفال والعناية بهم صحة وتربية وخلقا. فكثرت الأشعار والأناشيد التي تدعو إلى توعية الأطفال وتسليتهم ومعاملتهم معاملة حسنة. ففي الأثر أن الشاعرة "ليلى الأخيلية" أنها قالت للحجاج عن ولدها : إنني والله ما حملته سهوا ولا أنمته مئقا.* كذلك نجد في الأشعار الكثيرة تعلق شديد بالأطفال والحرص على تربيتهم وتوجيههم إلى مكارم الأخلاق. من ذلك أن امرأة كانت تغني ولدها وتصفة بالخصال الحميدة:

إن ابني سيد العشيرة جزلُ النوال كفَّه مطيرة

عفٌّ صليبٌ حسن السريرة يعطي على الميسورِ والعسيرة.

وها هي الصحابية أم الفضل بنت الحارث –رضي الله عنها– غنت هي الأخرى ولدها وقالت له :

ثَكَلْتُ نفسي وثكلتُ بكري إن لم يسد فهراً وغير فهر

بالحسبِ العدِّ وبذلِ الوفْر حتى يواري في ضريحِ القبر[14]

لا نبالغ في الحديث إذا قلنا بأن تطور الكتابة للأطفال في عصر صدر الإسلام جرى على نفس وتيرة تطور الكتابة للكبار، خاصة وأنه جاء لتحقيق هدف حضاري يليق ببناء الأمة الإسلامية في بداية نشأتها وتطورها، كما أنه جاء أيضا لإضافة لون جديد من ألوان الأدب الكثيرة، وهو الكتابة للأطفال وتسليتهم وتربيتهم وتنمية خيالهم وتوجيه أخلاقهم.

كما دخل أدب الطفل في هذه الفترة مجال السياسة[15] وأصبح الخليفة بنفسه هو من يشرف ويراقب الكتابة للأطفال، فنجد مثلا بأن الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان جعل مكافأة لمن كان يروي القصص والأشعار على الأطفال في المساجد. وها هو الخليفة العباسي هشام بن عبد الملك يوصي معلم أبنائه ويقول له : «وأول ما أوصيك به أن تأخذه

بكتاب الله، ثم أره من الشعر أحسنه، ثم تخلل به في أحياء العرب، فخُذ من صالح شعرهم، وبصره بطرف من الحلال والحرام والخطب والمغازي ». [16]

لقد ذكر الخليفة " هشام بن عبد الملك " في قوله هذا منهج جديد في تربية النشء وتوجيههم، جمع فيه بين الدين ، والأخلاق ، والشجاعة ، والأدب ، والتفقه في أمور الدنيا وأخبار الرعية والناس. وهو بذلك يسير على الدرب الذي خطه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحثّ عليه الصحابة والتابعين من بعده.

مع مجيء الخلافة العباسية دخلت الدولة الإسلامية عصرا جديدا من التطور والازدهار والرقي، وزادت رقعتها شرقا وغربا، شمالا وجنوبا، فتهاطلت الأمم والشعوب على الدين الإسلامي أفراد أو جماعات، وأصبحت الثقافة الإسلامية مزيجا مختلطا من ثقافات الشعوب المختلفة كالفارسية والرومانية واليونانية ... وغيرها.

لقد أثر كل هذا البناء الحضاري على فئة الأطفال بالدرجة الأولى، فأصبح أدب الأطفال جزء لا يتجزأ من الكتابات الأدبية في تلك الفترة، فكثرت القصص والحكايات الموجهة لهم، وحملت الجواري والقينات الأعجمية إلى مسامع الأطفال في القصور والدور عددا كبيرا من الحكايات والقصص المثيرة والشيقة تروي البطولات والمغامرات في شرق البلاد وغربها، فانبهر الأطفال بها وأدخلت على محياهم البهجة والفرح والسرور. من أمثلة هذه القصص ما نجد في الكتب المترجمة كـ : "كليلة ودمنة" ، و"ألف ليلة وليلة" ، و"قصة حي بن يقضان" ، و"سيف بن ذي يزن"، و"عنترة بن شداد"، ... وغيرهم. [17]

أما في الفترة الحديثة ، فقد شهد أدب الأطفال في العالم العربي حلة جديدة من التطور والازدهار ساهم فيها انتشار حركة ترجمة القصص والحكايات الغربية، إضافة إلى

اقتباس عدد كبير منها، وإخراجها في طابع عربي جديد. وحسب خليفة الدندراوي فإن أدب الأطفال خلال هذا العهد الجديد مرّ بثلاثة مراحل أساسية هي : [18]

المرحلة الأولى: وهي التي شهدت حركة واسعة من ترجمة الكتب الأجنبية خاصة الآداب الفرنسية والانجليزية، على رأس هؤلاء رفاعة الطهطاوي وعثمان يوسف جلال.

المرحلة الثانية: اعتمد الأدباء في هذه المرحلة على الاقتباس من الآداب الغربية في محاكاة القصص والأشعار وإصباغها بالروح العربية.

المرحلة الثالثة: وهي مرحلة التأليف والإبداع، حيث بدأ عدد من الأدباء في هذه المرحلة بالتأسيس لأدب الطفل العربي الحديث المشبع بالقصص الشعبية العربية، وبالأحداث والبطولات الإسلامية المقتبسة من تراث التاريخ الإسلامي الحافل، في مقدمة هؤلاء رائد أدب الطفل العربي في الفترة الحديثة الأديب كامل الكيلاني.

4- الكتابة القصصية للأطفال عند كامل الكيلاني :

لقد حملت مصر شرف نشأة أدب الطفل في البلاد العربية خلال الفترة الحديثة كأدب مستقل عن باقي الفنون والآداب التي نعرفها، وقد ساهم في ذلك البعثات العلمية التي كان يرسلها الحاكم محمد علي إلى أوروبا من أجل الدراسة في المدارس والمعاهد الأوروبية، والإطلاع على أبحاثهم وكتاباتهم في مختلف الآداب والعلوم.

على غرار هؤلاء الأدباء والشعراء في بلاد مصر، نجد "كامل الكيلاني"[19] الذي اهتم هو الآخر في كتاباته بالأطفال، فخصص العديد من أعماله لهم، من خلال القصص والقصائد التي كثيرا ما رسمت البهجة والسرور على وجوه الأطفال، فقد بلغ عددها حوالي مائتين وخمسين قصة ومسرحية، منها ما هو مؤلف أو مترجم أو مقتبس.

ففي سنة 1927 كتب قصة (السندباد البحري) التي طرق بها باب المغامرة والتشويق، فنالت إعجابا كبيرا على مستوى الصغار والكبار معا، كما كتب قصصا أخرى حاول من خلالها تربية الأطفال وتعريفهم ببطولاتهم العريقة كقصص: مصباح علاء الدين، حي بن يقضان، نوادر جحا، شهرزاد، ألف ليلة وليلة، وغيرهم.

لقد تأثر "الكيلاني" في كتاباته بالبيئة الاجتماعية التي تربى فيها، وبالأشخاص والأدباء الذين التقى بهم وساهموا في بناء شخصيته الأدبية القصصية. وحسب رواية "أحمد زلط" فإن توجه "الكيلاني" من أجل الكتابة للأطفال مردّه إلى عاملين أساسيين هما:

– القصص والروايات التي كان يسمعها من خاله (سعد إسماعيل) الذي كلفه أبوه بتربيته، فكثيرا ما كان يقص على مسامعه في الليل قصص البطولات والمغامرات والحكايات المتعلقة بالسحر والخرافات.

– تأثره الكبير بالأسطورات اليونانية التي كانت تحكيها له مربيته ذات الأصول اليونانية. وفي هذا السياق يروي بأنه كان يرى نفسه في المنام وهو يداعب الحيوانات والشخصيات البطولية التي كان يكتب عنها في أعماله الأدبية.[20]

لقد أضاف "الكيلاني" أسلوبا جديدا للكتابة للأطفال خصّه بالجانب الأدبي والجانب النفسي للطفل، مع مراعاته الكبيرة للمراحل العمرية لهم، وتصنيف الأعمال الأدبية حسب هذه المراحل.

يرى "علي الحديدي" بأن "الكيلاني" عمد إلى كتابة أدب للأطفال حتى يحببهم في لغتهم، ويتدرج بهم في تراثها تبعا لسنوات عمرهم، فيوقظ مواهبهم واستعداداتهم، ويقوي ميولهم وطموحاتهم، وينتهي بهم إلى حبّ القراءة والمثابرة عليها.[21]

بدأ "الكيلاني" مجال الكتابة بالتأليف للكبار ثم انتقل بعد ذلك لفئة الأطفال، فكتب لهم العديد من القصص والأشعار انبهر بها أدباء هذا الفن الجديد ووقفوا لها وقفة تقدير وعرفان. وها هو "خليل مطران" يصف بأن كلامه (أي الكيلاني) سهل ممتنع، وأنه جمع في قصصه من الفصاحة في المباني إلى البلاغة في المعاني، ومن الجزالة في الشعر، إلى السهولة في النثر.

لقد ترك "الكيلاني" زخما هائلا للمكتبة العربية من القصص الشعري والحكايات المطبوعة والمخطوطة في الأدب القصصي تضمنت العديد من المبادئ والأخلاق السامية التي يتبعها الطفل العربي. فنجده تكلم عن الوطنية في قصيدة بعنوان (نشيد مصر)، (ودندش العجيب)، وربط فيها الأطفال بوطنهم، وتعميق الانتماء له، والفخر برجاله، والانتساب إليه، والتضحية من أجله. وهذا كله في أسلوب سهل خال من الصعوبة اللغوية، والألفاظ المبهمة، والمفردات الغريبة.

كمثال على ذلك، نجده يذكر في قصيدة (عنقود العنب) الكثير من العبر والعظات والحكم. يقول في مستهلها:

قصة عنقود العنب عجيبة من العجب
وطرفة من الطرف وتحفة من التحف
نادرة ظريفة شائقة لطيفة
تردع كل خائن همّ بفعل سائن
وكل ما فيها عبر لعاقل إذا اعتبر
أقصها عليكم هدية إليكم
فإنها مثال يحفظه الأطفال[22]

لقد قدم لنا "الكيلاني" إنتاجا أدبيا وافرا يروي لنا فيه ثقافات مختلفة، تارة من التراث العربي الإسلامي، وتارة أخرى من الثقافات الشرقية والغربية، بأسلوب سهل وبسيط يتناسب مع عقلية الطفل العربي وبيئته الاجتماعية التي هو في كنفها. فنجده كتب للأطفال في السيرة النبوية وفي حياة الصحابة الكرام، واقتبس لهم من الأدب العالمي قصصا رائعة كجحا وحكاياته، وقصص ألف ليلة وليلة، كما لم ينس جانبا من المرح والفكاهة، فكتب القصص والمسرحيات الفكاهية. وبالتالي فتح بقصصه آفاقا جديدة في اللغة العربية، وجعلها نافذة يطل منها أبناؤنا على ثقافات شعوب العالم المختلفة.

خاتمة:

ما يمكن استخلاصه هو الاهتمام الكبير الذي حضي به أدب الأطفال في الوطن العربي ابتداء من القرن السابع عشر الميلادي، فقد انتعش ظهوره في بلاد المشرق العربي، ثم انتقلت العدوى إلى باقي الأقطار العربية وصولا إلى منطقة المغرب العربي. ومما ساهم في ظهوره بهذه الوتيرة اشتغال حلّة من الأدباء العرب في هذا المجال بعدما تشبعوا من الأدب الغربي الذي سبقهم في كتابة أدب الأطفال من قصص وحكايات وأشعار ومسرحيات.

ما يمكن استخلاصه هو الحاجة الكبرى في الوقت الراهن إلى مزيد من الدراسة والتخطيط في مجال أدب الطفل العربي، خاصة النظر بعين الاعتبار إلى المراحل العمرية للطفل وإلى قدراتهم وميولهم، كما يجب تجنب نقل الكتب الأجنبية حرفيا إلى العربية، والاعتماد عوض ذلك على سرد القصص والحكايات الشعبية الموجودة بكثرة في التراث العربي الإسلامي. إضافة إلى ضرورة تجنب الأدباء الكبار إلى تلك النظرة الدونية التي ظلت تلاحق هذا اللون الأدبي في منطقة الوطن العربي خلال عقود من الزمن. بل يجب اعتباره

من أساسيات الأدب العام في الوقت الحالي، خاصة وأنه يعالج قضايا ومزايا الفئات الطفولية التي تمثل مستقبل المجتمعات العربية .

قائمة المراجع

[1] - موفق رياض مقدادي ، البنى الحكائية في أدب الأطفال العربي الحديث، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، مجلة عالم المعرفة ، العدد 392 ، الكويت ، سبتمبر 2012 ، ص 19 .

[2] - ربحي مصطفى عليان ، أدب الأطفال ، دار صفاء للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ، 1435هـ - 2014م ، ط1 ، ص 42 .

[3] - علي الحديدي ، في أدب الأطفال ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، 1976 ، ص 110.

[4] - المرجع نفسه ، ص ص 102 ، 103 .

[5] - ينظر : عبد الإلاه عبد الوهاب العرداوي ، هاشمية حميد جعفر الحمداني ، أدب الأطفال بين المنهجية والتطبيق ، دار الرضوان للنشر والتوزيع ، عمان ، 1435هـ - 2014م ، ط1 ، ص 14 .

[6] - أحمد زلط ، الخطاب الأدبي والطفولة ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، مكتبة الشهاب ، القاهرة ، 1997 ، ص 25 .

[7] - ينظر : ربحي مصطفى عليان، المرجع السابق ، ص ص 50 ، 51 .

[8] - ربحي مصطفى عليان، المرجع السابق ، ص ص 50 ، 51 .

[9] - نجلاء نصير بشور ، أدب الأطفال العرب ، مركز دراسات الوحدة العربية ، أوراق عربية 31 ، شؤون ثقافية ، ط1 ، أوت 2012 ، لبنان ، ص 10.

[*] - يعتبر إيسوب أحد رواد القصص الخيالية في فترة الحضارة اليونانية، وقد غزت هذه القصص الأدبي الأوروبي والعربي في فترة العصور الوسطى وفترة عصر النهضة.

[10] - ينظر : نجلاء نصير بشور ، المرجع السابق ، ص 11.

[11] - أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الأدب ، باب الكنية للصبي وقبل أن يولد للرجل ، (598/1) ، رقم 3947 . ومسلم في صحيحه ، كتاب الآداب ، با استحباب تحنيك المولود عند ولادته وحمله إلى صالح (1292/3) ، رقم 2150.

[12] - رواه البخاري في الأدب ، والترميذي وابن ماجه والحاكم . وحسنه الألباني في الصحيح الجامع ، كتاب منتهى السول على وسائل الوصول إلى شمائل الرسول ، (440/2-441) ، رقم 3146 .

[13] - ينظر : أبو عمر عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، البيان والتبيين ، تحقيق :عبد السلام هارون ، ج ٢ ، مطبعة مدني ، ١٩٩٨، د ب ، ص 180 .

[*] - أي: ما أنمته في وقت باكر أبدا .

[14] - ينظر : أحمد عبد المجيد خليفة الدندراوي ، أدب الأطفال في العالم العربي – أسسه، وتطوره، وأهميته، وأهدافه، وسماته، وفنونه، ووسائطه، ومشكلاته، دار الهداية ، 1434هـ - 2013م ، ط1، ص ص 68 ، 69.
[15] - ينظر : ربحي مصطفى عليان ، المرجع السابق ، ص 31.
[16] - المرجع نفسه ، ص 71.
[17] - ينظر : أحمد عبد المجيد خليفة الدندراوي ، المرجع السابق ، ص 72.
[18] - المرجع نفسه ، ص 77.
[19]- كامل ابراهيم الكيلاني (1897-1959) كاتب وأديب مصري، اشتغل في جل أعماله الأدبية على الكتابة للأطفال حتى لقب برائد أدب الطفل في العالم العربي، وترجمت قصص إلى لغات العالم.
[20] - ينظر : أحمد زلط ، أدب الطفولة بين كامل الكيلاني ومحمد الهراوي- دراسة تحليلية ناقدة ، دار المعارف ، د ط ، د ت ، ص 92.
[21] - ينظر : علي الحديدي ، في أدب الأطفال ، المرجع السابق ، ص 375 .
[22] - ينظر : أحمد زلط ، أدب الطفولة بين كامل الكيلاني ومحمد الهراوي ، المرجع السابق ، ص 97 - 99.